خطبة جمعة بعنوان

الإرشاد إلى معرفة اسم الله التواب ووجوب التوبة على جميع العباد

٣/ ذو القعدة/١٤٤٣ هجرية

مسجد ابراهيم بشحوح سيئون

فرغها/ أبو عبدالله زياد المليكي

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران: 102].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: 70-71]

أما بعد:

فإن معرفة أسماء الله وصفات الله جل وعلا أمر يتحتم على المسلم أن يتعرف على ربه سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وفضله ونعمائه، في البخاري(2736) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةٌ إِلَّا واحِدًا، مَن أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ.

وإحصاؤها علمها والعمل بمقتضاها أي بما دلت عليه تلك الأسماء، فيعلم أن الله عز وجل من أسمائه الغفور فيستغفر الله، وأن من أسمائه الرحيم فيطلب رحمته، وأن من أسماء الله عز وجل الكبير فيعظمه ويكبر الله جل وعلا، وأن من أسماء الله سبحانه وتعالى القدير، فيعلم أن الله لا يعجزه شيء، وهكذا، هذا هو العمل بما دلت عليه أسماء الله، يعلم أن الله هو الرقيب فيراقبه، وأن الله سميع يسمع ما يقول فلا يقول إلا ما يرضي الله، وأن الله بصير يراه في تقلبه وسائر أحواله فلا

يفعل إلا ما يرضاه الله، فعلم من هذا الحديث أن من أحصى أسماء الله عز وجل دخل الجنة، وإن إحصاءها ليس بمجرد حفظها بل بمعرفتها والعمل بمقتضاها،

ألا وإن من أجل أسماء الله عز وجل التواب، قال الله سبحانه وتعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصّدَقَاتِ وَأَنّ اللّهَ هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ (104)}[التوبة:104].

فالله جل وعلا هو التواب الرحيم، اسم عظيم من أسماء الله، قال الله:{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنّهُ كَانَ تَوّابًا (3)}[النصر:31].

فالله تواب، ومعنى تواب أنه يتوب على عبده، يتوب عليه أي يلهمه التوبة، فما أحد يتوب إلا بالهام الله له، وتوفيق الله له،قال الله:{وَلَوْلَا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنّ اللّهَ تَوّابٌ حَكِيمٌ (10)}[النور:10].

وقال الله:{وَلَوْلَا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنّ اللّهَ يُزَكّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21)}[النور:21].

فمن ألهمه الله التوبة أراد الله له التزكية، ومعنى تواب أنه يلهمه التوبة ويقبلها منه، قال الله:{وَهُوَ الّذِي يَقْبَلُ التّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السّيّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25)وَيَسْتَجِيبُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26)} [الشورى:26].

فالفضل يعود كله له، يلهم عبده التوبة ويقبلها منه، ويلهمه الشكر ويثيبه عليه، ويلهمه العمل الصالح ويثيبه عليه، وما بكم من نعمة فمن الله، فمن ألهمه الله عز وجل التوبة وقبلها سبحانه وتعالى منه فإن الله عز وجل أراد له خيرا كثيرا، التواب سبحانه وتعالى يقبل توبة سائر العباد إذا تابوا إليه، كل من تاب إلى الله تاب الله عليه، لأن اسمه التواب، من سائر الذنوب والمعاصي، كبرت أو صغرت، ليس هناك ذنب

يتعاظم رب العالمين، ولهذا قال جل وعلا :{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53)}[الزمر:53]

الشأن هو في توفيقك للتوبة، فإذا وفقت للتوبة الصحيحة قبلها الله منك، فلا يجوز لإنسان أن يقنط من رحمة الله، قال الله:{وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56)}[الحجر:56]

فالله يقبل توبة الكافر وهو كافر عدو لله، كما قال سبحانه وتعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}[الأنفال:60].

فسمى الكافرين أعداء لله، وقال سبحانه:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ}[الممتحنة:1].

وقال سبحانه:{مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (98)}[البقرة:98].

فهم أعداء الله ومع ذلك إذا ألهمه التوبة قبلها منه وهو كان كافرا، إذا أراد الله به خيرا ألهمه التوبة وقبلها منه، قال الله:{قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ}[الأنفال:38].

وقوله قد سلف : شامل للكفر، شامل للشرك، شامل للفساد كله، من سائر ما يعمله الكفار الذين لا يتورعون عن شيء، وليس هناك حاجز يحجزهم عن المآثم والجرائم، ومع ذلك لو تاب أحدهم إلى الله وأناب قبل الله توبته، قال الله:{وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25)}[الشورى:25].

وهكذا سائر أهل للفساد والمحاربة لله ولرسوله وللمؤمنين إذا تابوا قبل الله توبتهم، قال الله سبحانه وتعالى:{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي

الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ۖ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (34)}[المائدة:34].

كل هذه الجرائم إذا تاب صاحبها منها الله غفور رحيم، الله تواب يقبلها منه، المحاربة الفساد محاربة لله ولرسوله ولدينه وللعباد، وهكذا، والمخلط صاحب التخليطات بالذنوب وغيرها،قال الله:{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (102)}[التوبة:102]

فاللّٰه التواب الرحيم، وحتى مهما كبر ذنبه أو صغر هو التواب سبحانه وتعالى، قال الله:{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (39)}[المائدة:39].

فإن الله يتوب عليه وهو سارق ويتوب عليه، والمفتري يتوب الله عليه إن تاب، قال الله:{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5)}[النور:4،5].

هذا وأصلح وقد افترى ورمى المحصنات الغافلات وارتكب كبائر من الذنوب وإذا تاب قبل الله توبته، لأن من أسمائه سبحانه وتعالى التواب، والقاتل والمشرك داع مع الله غيره يقبل الله توبته إن تاب، قال الله:{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ} أي تلك الجرائم القاتل، الشرك باللّٰه، والقتل، والزنا، قال :{يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (70)وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71)}

[الفرقان:70،71].

أي يقبل الله توبته يتوب إلى الله، كل هذه والله يبدل سيئاتهم حسنات، ليس معناه أن تلك الأعمال القبيحة تعود حسنات ولكن الله يمحوها ويعفو عن السيئات، فيمحوها ويبدل بدلها أعمال صالحة تثقل بها ميزان ذلك العبد الذي كان مسيئاً، أيها الناس: إن الشأن كله في التوبة، فإذا صحت توبة الإنسان صحت له كل خير، ولهذا فإن أكثر الناس توبة إلى الله عز وجل هم أنبياء الله ورسل الله وسائر الصلحاء، فإن التوبة تكون من ارتكاب الأخطاء، الجرائم والمآثم الكفر وما دونه، ومن القصور في الواجبات، وتوبة المقصر في أوامر الله ونواهيه أوجب عند شيخ الإسلام وجماعة من أهل العلم من توبة المرتكب للخطايا، لأن هذا المفتئت على أوامر الله عز وجل متمرد على أوامره، متمرد على أوامر الله عز وجل مقصور فيها، مفتأت عليها، ونعم الله على العباد كثيرة، وما من نعمة إلا وقد أوجب الله عليك شكرها، وذكرها، فإن لم تتب إلى الله عز وجل كنت مسيئاً، وما بكم من نعمة فمن الله، فهذا يعلم به أن التوبة واجبة على البر والفاجر والمسلم والكافر كل بحسبه، واجبة من جميع الذنوب والخطايا الصغيرة والكبيرة، وجميع التقصيرات، ولا يجوز لأحد أن يظن بنفسه أنه لا تقصير لديه،إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ"؛ أخرجه مسلم(2577)عن أبي ذر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن رب العزة سبحانه وتعالى، ينادي عباده يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم.

ويدخل تحته ما جاء عند الترمذي (2499)، وأحمد (13049) واللفظ لهما، وابن ماجه (4251) باختلاف يسير، عن علي بن مسعدة عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"كلُّ ابنِ آدمَ خطّاءٌ ، وخيرُ الخطّائينَ التوّابونَ.

وهو حديث حسن لغيره، وإنما الشاهد أن كثيرا من الناس زهى بنفسه، اغتر بنفسه، هذا في حد ذاته ذنب، الاغترار ربما أدى بك إلى الإعجاب كما أدى ذلك بالخوارج فقد زهوا بأنفسهم وأعجبوا بها. حتى مرقوا من الدين، قال النبي صلى الله عليه وسلم:"يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تحْقِرُونَ صَلَاتكُمْ مع صَلَاتِهِمْ، وصِيامَكُمْ مع صِيامِهِمْ، وعَمَلَكُمْ مع عَمَلِهِمْ، ويَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجاوِزُ حَناجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ"؛ أخرجه البخاري في صحيحه(5058) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والشاهد أنها كانت لهم صلاة يحسنونها، صيام يكثرونه، قراءة عظيمة وعناية بهذه العبادة، لكن أعجبوا بأنفسهم، واغتروا بأنفسهم حتى فضلوا أنفسهم على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحتى رأوا أنهم هم الذين يحكمون كتاب الله، وأن غيرهم غير محكم له، وكانوا يقولون : إن الحكم إلا لله، ويأتي علي بن أبي طالب يقول: احكم يا مصحف، أليس يحكم بها أهل العلم، ولهم قصص معلومة مدارها على الغرور والإعجاب، والبعد عن العلم وأهله، مدارها على عدم معرفة الإنسان لنفسه وما هو فيه من الضعف، وما فيه القصور، ولهذا سبق أن قلنا إن أنبياء الله ورسل الله أكثر الناس توبة، في جامع الترمذي(3434) بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنه، قال:"إن كنّا لنعدُّ لرسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ في المَجلِسِ الواحدِ مائةَ مرّةٍ: ربِّ اغفر لي، وتُب عليّ، إنّكَ أنتَ التّوّابُ الرّحيمُ.

مجلس واحد مائة مرة، يعدون له طلب التوبة من رب العالمين سبحانه، وأنت تجلس أعداد المجالس ما تطلب توبة الله، وربما وقع في فلان وعلان أنه عنده وعنده، دون أن تنظر فيما أنت فيه مما تحتاج فيه إلى توبة، وتعالج غيرك أيضا بالتوبة وتدعوهم إلى ذلك كما دعا أنبياء الله ورسل الله إلى التوبة، قال الله:{وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا

تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52)}[هود:52]

هكذا نبي الله هود يدعو قومه إلى التوبة، ونبي الله شعيب يقول : {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (88)وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (89)وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90)}[هود:88،90].

ويدعوهم إلى التوبة، وهكذا نبي الله آدم:{فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)}[البقرة:37].

تاب إلى الله، أكل من الشجر، منعه الله عن الشجرة فأكل منها، تاب الله عليه :{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (122)}[طه:116،122].

تلقى من ربه كلمة تاب عليه، تاب إلى الله فتاب الله عليه، وكان من ثمار توبته أنه هداه، فهذا ثمرة عظيمة، ومن أجل تلك التوبة أن الله جل وعلا يحب التواب، هذا مراد الله بالتوبة من عبده، مراد من رب العالمين، قال الله:{يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26)}[النساء:26].

والله يريد أن يتوب عليكم،

الله خلق العبد ولم يجعله بعيدا عن الأخطاء، بل تخطئ، ويريد أن يتوب عليك،{وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ

أن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (28)}[النساء:2728].

هكذا لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم، أي أن هذا هو طبعكم، الإنسان هكذا خلق ليس معصوما، ولكن الشأن أنك تتوب إلى الله عز وجل، وتسارع بالتوبة وتعجل بها قبل أوانها، قال الله :{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (17)وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (18)}[النساء:17،18].

إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر، ثبت عن ابن عمر رضي الله عنه، إنّ اللهَ عَزّ وَجَلّ يَبْسُطُ يَدَهُ باللّيْلِ لِيَتُوبَ

مُسِيءُ النّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بالنّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللّيْلِ، حتّى تطْلُعَ الشّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا.أخرجه مسلم(2759).

يبسطها لقبول توبة عبده التائب، فإذاً ما من لحظة من اللحظات إلا ورب العالمين سبحانه وتعالى باسط يده لقبول توبة عباده حتى تطلع الشمس من مغربها، إذا طلعت الشمس من مغربها ورآها الناس آمنوا كلهم أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، فعجل، بادر، أسرع، بادر بالتوبة، إن تباطؤك بالتوبة أيها المسلم ذنب في حد ذاته، فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" والله إني لاستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من مائة مرة"؛ أخرجه مسلم(2702) عن الأغر رضي الله عنه.

وجاء عن أبي هريرة:"واللهِ إنّي لأستَغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليْهِ في اليَومِ أكثَرَ مِن سَبْعِينَ مَرّةً" أخرجه البخاري(6307).

وحديث الأغر مائة مرة، وفي المجلس الواحد يعدون له مائة مرة،

وتنوعة أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوبة، فعلم من ذلك أن سائر أوقاته كانت توبة، وكان يدعو ربه أن يقبلها منه، ففي الحديث الثابت عن ابن عباس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول:" كان النّبيُّ صلّى اللّهُ عليه وسلّمَ يدعو يقولُ ربِّ أعِني ولا تُعِنْ عليّ وانصُرني ولا تنصُرْ عليّ وامكُرْ لي ولا تمكُرْ عليّ واهدِني ويَسِّرِ لي الهُدى وانصُرني على من بغى عليّ ربِّ اجعلْني لك شَكّارًا لك ذَكّارًا لك رهّابًا لك مِطواعًا لك مُخبِتًا إليك أوّاهًا مُنيبًا ربِّ تقبّلْ توْبتي واغسِلْ حَوبَتي وأجِبْ دَعْوتي وثبِّتْ حُجّتي وسَدِّدْ لساني واهدِ قلبي واسلُلْ سَخيمةَ صدْري"؛ أخرجه الترمذي في سننه(3551).

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه المثابة وهو يقول تقبل توبتي، ونبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)}[البقرة:127،128].

هكذا يدعو ربه أن يتوب عليه، نبي الله إبراهيم إمام الحنفاء، الذي وفى، الذي أتمهن ومع ذلك يطلب ربه أن يتوب عليه، وأنت في هذا الحال ربما تجلس المجالس ولا تطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى، شعورا منك، غرورا منك، بعدا منك عن هذا الأمر الجلل، تعرض لمحبة الله تعرض لهذه التوبة لمحبة الله في كل حين، قال الله:{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222)}[البقرة:222].

تعرض لمغفرة الله بالتوبة في كل حين، قال الله:{وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (82)}[طه:82].

تعرض لهذه التوبة في كل أوقاتك، لسلوك طريق الأنبياء، قال الله: {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ}[الأنعام:90].

فقد كان هذا دأبهم وشأنهم، موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه، {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (143)}[الأعراف:143].

والشاهد أنه قال: تبت إليك، هكذا نبي الله نوح لما سأل:{وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45)قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (47)[هود:45،47].

فمن لم يتب الله عليه ولم يغفر له ولم يوفقه يكون من الخاسرين، هكذا شأن الصلحاء، شأن أنبياء الله، ورسل الله، الشعور بأهمية التوبة، أهمية التوبة في كل حين، في كل شأن، في كل وقت، والمبادرة بها، نقل النووي رحمه الله أنه تجب التوبة والمبادرة بها والاسراع بها، بإجماع الأمة الكتاب والسنة وإجماع الأمة، لقول النبي صلى الله عليه وسلم:"أَنْ تَصَدّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ البَقَاءَ، وَلَا تُمْهِلَ حتّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ.أخرجه البخاري (1419)، ومسلم (1032)عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فبادروا بادروا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:"بَادِرُوا بالأعْمَالِ فِتَنًا كقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا.أخرجه مسلم(118) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا من أهم ما يكون المبادرة بالتوبة؛ توبة من الجهل، التوبة من الشرك، التوبة من البدع، وربما ارتكب الإنسان بدعة فحيل بينه وبين

التوبة بسببها، فاجتنب البدعة عبد الله، لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يعني في شأن أهل البدع أنه ما لم يحدث أو ما دام محدثا في ذلك تقبل توبته، ما لم يكن كذلك، فإذاً يقول الإمام أحمد رحمه الله: إنه لا يوفق لها، أي لا يهدى لها، لو وفق للتوبة لقبلها منه، ولكن لا يوفق لها،يقبل الله سبحانه وتعالى توبته إذا تاب ولو كان كافرا، إنما لا تقبل توبة مبتدع حتى يقلع عن بدعته، أي ما دام مصرا عليها وبعيدا عن التوبة لا يوفق لها، فاجتنب البدع، اجتنب الشركيات، اجتنب المعاصي، وتب إلى الله واستغفره، فالله يقول لعباده الصالحين:{وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)} [النور:31].

وقال سبحانه وتعالى:{قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ}[الأنفال:38].

وهكذا أدلة الكتاب والسنة تتوالى في الشأن

الخطبة الثانية:

الحمد لله، الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سلك نهجه واهتدى بهداه إلى يوم الدين، أيها الناس: إنه مأمور العبد بالاستقامة، ومع الاستقامة يحصل زلل وخطل، أوجب الله عز وجل التوبة في سائر الأوقات وعلى سائر العباد، فاستقيموا إليه واستغفروه، هذا في شأن المستقيم لله عز وجل مأمور بالاستغفار، ومأمور بالتوبة، :"كانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إذَا انْصَرَفَ مِن صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقالَ: اللَّهُمَّ أنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ. قالَ الوَلِيدُ: فَقُلْتُ لِلأَوْزَاعِيِّ: كيفَ الاسْتِغْفَارُ؟ قالَ: تَقُولُ: أسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أسْتَغْفِرُ اللَّهَ.أخرجه مسلم(591) عن ثوبان رضي الله عنه.

فيحدث استغفارا وتوبة بعد عمل صالح، وإذا جالس مجلس وحصل فيه لغط قال:"سبحانكَ وبحمدِكَ، أشهدُ أن لا إلهَ إلا أنتَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ.

غفر له ما حصل في مجلسه ذلك، ثبت هذا الحديث عن عائشة وعن غيرها، جاء عن أعداد من الصحابة، وثبت عن بعضهم، وختم به البخاري في صحيحه فيما معناه كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

ثم أتى الحافظ عند هذا الحديث في آخر فتح الباري فحشد تلك الأحاديث طرق هذا الحديث أكثر من خمسة عشر صحابيا، وإنما الشاهد من ذلك أن هذه كفارة المجلس، وكان إذا تكلم بكلام أو في أي مجلس كان، وإن ملائكة الله لتطلب من ربها عز وجل المغفرة لمن دخل في عمل صالح ويعبد الله وهو في عبادة:"إذَا توَضّأ العبد فأحْسَنَ

الوُضُوءَ، ثُمّ أتَى المَسْجِدَ لا يَنْهَزُهُ إلّا الصّلَاةُ، لا يُرِيدُ إلّا الصّلَاةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إلّا رُفِعَ له بهَا دَرَجَةٌ، وَحُطّ عنْه بهَا خَطِيئَةٌ، حتّى يَدْخُلَ المَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ كانَ في الصّلَاةِ ما كانَتِ الصّلَاةُ هي تَحْبِسُهُ، وَالمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ علَى أحَدِكُمْ ما دَامَ في مَجْلِسِهِ الذي صَلَّى فيه يقولونَ: اللَّهُمّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمّ اغْفِرْ له، اللَّهُمّ تُبْ عليه، ما لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، ما لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ.أخرجه البخاري (647)، ومسلم (649) واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وهو في ذلك العمل والملائكة تستغفر له وتطلب توبة الله عليه، وهو في عمل صالح، وإذا أفاض الحجيج من عمل صالح وبعد قضاء أهم الحج وهو عرفة، {ثُمّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَاضَ النّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللّهَ ۚ إِنّ اللّهَ غَفُورٌ رّحِيمٌ (199)}[البقرة:199].

إن فوائد التوبة لعظيمة نبي الله نوح يقول:{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبّكُمْ إِنّهُ كانَ غَفّارًا (10) يُرْسِلِ السّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لّكُمْ جَنّاتٍ وَيَجْعَلْ لّكُمْ أَنْهَارًا (12)مَا لّكُمْ لَا ترْجُونَ لِلّهِ وَقَارًا (13)}[نوح:10،13]

إنما يحصل في البلاد والعباد في سائر الدنيا هو بالقصور عن التوبة، وبعدم الرجوع إلى الله عز وجل، من القاصي والداني، وبالتمادي في المعاصي، دون إحداث توبة منها، قال الله:{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِمَا كسَبُوا مَا ترَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنّ اللّهَ كانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (45)}[فاطر:45]. {وَمَا أَصَابَكُم مّن مّصِيبَةٍ فَبِمَا كسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كثِيرٍ (30)}[الشورى:30].

فواجب أن يحدث المسلمون التوبة قبل غيرهم، واجب أن تكون توبتهم في سائر الآناء والأوقات والأحيان، واجب أن يشعروا بوجوب ذلك، أن يشعر المسلم بوجوب التوبة عليه في كل حين، وأن يقتدي بهدي النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يزكي نفسه، قال الله:{فَلَا تُزَكّوا

أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (32)}[النجم:32].

وإنما يزكيها بطاعة الله، قال الله:{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (14)وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (15)}[الأعلى:14،15]

وقال الله:{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9)}[الشمس:9] أي بالطاعة، وبالتوبة، وبالعمل الصالح، {وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10)}[الشمس:10].

فالنهي عن التزكية التي هي بمعنى: الغرور، والإعجاب، والزهو بالنفس، والأمر بالتزكية التي هي بمعنى: طاعة الله، والتوبة، والإخلاص، والعمل الصالح، هكذا أمرنا الله سبحانه وتعالى، {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)}[النور:31].

فمن أجل ثمارها الفلاح، الهداية، محبة الله، مغفرة الذنوب، سائر ما يكون من صلاح وخير في هذه الدنيا كل ذلك بحصول توبة العباد، وفي آخر الزمان في حين يتوب الله عز وجل على العباد فيصير الناس على عمل صالح يجعل الله عز وجل البركات في الأرض، حتى إن الجماعة ليأكلون من الرمانة ويستقلون بقشرتها، وهذا مما دل عليه قول الله عز وجل:{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96)} [الأعراف:96].

البلاد أجدبت، الفتن كثرت، الأمور اشتدت على العباد،ما مِن عامٍ إلّا والّذي بعدَهُ شرٌ منهُ حتّى تلقوا ربّكم"؛

أخرجه البخاري (7068)، عن أنس بن مالك رضي الله.

من واجب ذوي الشأن والصغير والكبير والذكر والأنثى الدعوة إلى الله، وإلى التوبة إلى الله، وإلى الصدق مع الله، وإلى الإخلاص لله، وإلى أن يتعامل الإنسان مع نفسه تعاملا صحيحا، لا يغالط نفسه ولا غيره، فإن عدم التوبة مغالطة للنفس، وهي ندم، قال الله:{أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56)أَوْ

تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57)أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (58)}[الزمر:56،58].

أي يتوب إلى الله ويعمل صالحا، قال الله:{بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (59)وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (60)}[الزمر:59،60].

نسأل الله عز وجل أن يمن علينا وعليكم بالتوبة النصوح، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا غيثا مغيثا، اللهم اسقنا فإن العباد والبلاد بحاجة إلى فضلك وإحسانك يا رب العالمين، والحمد لله رب العالمين.